

شیخ الأباطح فی شعر الأوردبادی - قیس بهجت العطار

فصلنامه تخصصی مطالعات قرآن و حدیث سفینه

سال دوازدهم، شماره ۴۷ «ویژه حضرت ابوطالب رضی الله عنه»، تابستان ۱۳۹۴، ص ۱۰۷-۱۱۹

شیخ الأباطح فی شعر الأوردبادی

قیس بهجت العطار *

چکیده: ایمان ابوطالب بن عبدالمطلب در شعر شاعران عربی سرا جلوه‌ای بارز داشته، از جمله اشعار میرزا محمد علی اوردبادی (۱۳۱۲-۱۳۸۰ قمری) که در این گفتار، نقد و بررسی شده است. نویسنده، چند قطعه شعر از دفتر شعر مخطوط اوردبادی برگزیده و به شرح درونمایه آن از جنبه ادبی و محتوایی پرداخته است.

کلیدواژه‌ها: ابوطالب بن عبدالمطلب- ایمان؛ ابوطالب بن عبدالمطلب - ادبیات عرب؛ اوردبادی، محمدعلی (۱۳۱۲-۱۳۸۰ق) - دفتر شعر (مخطوط)؛ ادبیات عرب - قرن چهاردهم.

*. مدرس دانشگاه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، واللعة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

وبعد، فإن من أشدّ وسائل التبليغ تأثيراً الشعر، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: إن من الشعر لحِكْمًا، وكان يضح لحسان بن ثابت منبراً يقوم عليه فيهبجو من هجا رسول الله ﷺ ... والحاجة تدعو لمعرفة اللغة والعربية والاستشهاد به في التفسير وتعرّف معاني كلام الله تعالى وكلام رسوله، ويُستدلّ به أيضاً على النسب والتاريخ وأيام العرب، ويقال: الشعر ديوان العرب^١.

قال العلامة الأميني رحمه الله: وكان ﷺ يصوّر للشاعر جهاده وينصّب به ويقول: اهجوا بالشعر، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل، وفي لفظ آخر: فكأن ما ترمونهم به نضح النبل، وفي ثالث: والذي نفس محمد بيده فكأنما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر^٢.

وعن عبدالله بن سلمة، قال: كنا عند عمّار بن ياسر بصقّين وعنده شاعر ينشده هجاءً في معاوية وعمرو بن العاص، وعمّار يقول له: الصق بالعجوزين، فقال له رجل: أيقال الشعر عندكم ويُسبُّ أصحاب رسول الله ويُسبُّ أصحاب بدر؟! فقال له عمّار: إن شئت فاسمع وإن شئت فاذهب، فإن معاوية وعمرا قعدا بسبيل الله يصدّان عنه، فالله سائبهما وكلُّ مسلم، إنّه لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: قولوا لهم كما يقولون لكم، فإنّ كُنّا لنعلّمه الإماء بالمدينة^٣.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يشجّع الشعراء ويحثّهم على مقارعة شعراء الباطل من أتباع معاوية، فمن ذلك أنّ كعب بن جعيل التغلبي شاعر معاوية في صفّين قال قصيدة في ذمّ أهل العراق واتّهام أمير المؤمنين عليه السلام بدم عثمان، فدعا أمير المؤمنين قيس بن عمرو النجاشي وقال له: إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجِبِ الرَّجُلَ^٤.

وكتب عمرو بن العاص كتاباً فيه شعر إلى عبدالله بن العباس يحاول أن يستغويه ويفتله عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فعرض ابن عباس الكتاب على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال عليه السلام: يابن عباس

١. انظر: المغني، لابن قدامة ١٢: ٥٢-٥٣.

٢. الغدير ٢: ٧.

٣. أنساب الأشراف: ٣١٦ ح ٣٨٤.

٤. شرح نهج الحديدي ٣: ٨٩.

أجبه، وليردّ عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر^١. وهكذا سار الأئمة عليهم السلام بنفس هذه السيرة، فكان لكلّ منهم شاعر أو شاعران أو أكثر^٢، بل نسبت نسبت أشعار لكلّ من الأئمة عليهم السلام.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على شدّة اهتمام المعصومين عليهم السلام بالشعر الهادف والشعراء العقائديين، مقابل الحكومات الظالمة الغاصبة، التي كانت تُقرب المتزلفين والإمعات وأبواق الشياطين، وتقتل وتسجن وتشرد كلّ من يمتّ لأهل البيت عليهم السلام بصلة. ولم يحافظ العرب والمسلمون على شيء من الثقافة - بعد القرآن و الحديث النبوي - مثلما حافظوا على الشعر، الذي دونوا فيه وأثبتوا واقعهم ووقائعهم، ورصدوا الحقائق والأزباف، فكان الشعر معترك الأفكار، وساحة الصراع بين الحقّ والباطل.

وعند تلاقح الثقافات الذي اهتمّ به الإسلام غاية الاهتمام، دخل الشعراء الفرس والأتراك والهنود و... في حلبة الصراع بين الحقّ والباطل، فراحوا يغرّدون وبهزجون ويشعرون بألسنتهم تارة وباللسان العربي تارة أخرى، فشكّلوا حالةً ضخمة في الأدب العربي، وأسّسوا مدرسة عظيمة يحق لنا ولهم أن نفتخر ويفتخروا بها، وإن حاول النواصب والقوميون طمس معالمها، وتشويه كلّ محاسنها، وحسبك الحملة الشعواء التي شنّوها على مهيار الديلمي الشاعر الفحل ورّميه بالشعوبية، وما للرجل من ذنب سوى ولاته لأهل البيت عليهم السلام وتبرّيه من أعدائهم.

لقد غرّد الكثير من الشعراء وانتشوا بمدائح أهل البيت عليهم السلام وهجاء أعدائهم منذ الصدر الأوّل وإلى اليوم، فجاءت أشعارهم سلاسل ذهبية في عقّد الأدب الشيعي الزاهر.

وفي هذا المضمّار نقف في هذه المقالة على نموذج رائع من التلاقح الفكري الشيعي بين العرب والفرس والأتراك، وذلك عبر تناول شخصيّة شيخ الأباطح أبي طالب بن عبد المطلبّ العربي الهاشمي الصميم، من خلال شعر الشيخ الحجّة العلّامة محمدعلي الأوردبادي النجفي، التركي الأصل، الإيراني المولد والمنشأ، العربي الثقافة والمسلك والمنحى.

أبوطالب عليه السلام

فأمّا أبوطالب بن عبد المطلبّ بن هاشم، فهو العَلَم الشامخ، وذو الشرف الباذخ، والموحّد المؤمن، والمدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وشريعته الغراء، وهو عمّ خاتم المرسلين، ووالد سيّد الوصيين، وهو غني عن التعريف.

١. وقعة صفين: ٤١٢.

٢. انظر: الفصول المهمة، لابن الصبّاح المالكي: ١٥٣، ١٧١، ٢٠١، ٢١١، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٨٥.

وقد تتالت سهام الحقد من كل حذب و صوب من النواصب والقوميين على هذا الكوكب الزاهر والنجم الالاح لآنه والد للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولآنه تحمّل أعباء الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الرسالة، ولآنه قارع عتاة قريش ورؤوس النفاق من أمثال أبي سفيان وأبي جهل وأضرابهما. ولما لم يجدوا فيه مغمزا من حيث فخامة الشخصية، وشرف المحتد والموقف، راحوا ينفون عنه الإيمان، ويختلقون المختلفات، ويضعون بعض الأحاديث في ذلك.

وهنا وقف الشعراء وقفة السد المنيع لبيان الحقيقة الناصعة، ودحض تلك الأباطيل، ورخص تلك المعرّات التي هي بأصحابها ألق وأليق، فجاشت قرائحهم بقصائد خالدة في مدح شيخ الأباطح وبيان الوجه الناصح له.

وأقدم النصوص الشعرية في هذا المقام ما ورد من شعر عن أمير المؤمنين عليه السلام في رثاء أبيه أبي طالب، وقوله:

أبا طالب عصمة المستجير	وغيث المحول ونور الظلم
لقد هدّ فقدك أهل الحفاظ	فصلّى عليك ولي النعم
ولقّاك ربك رضوانه	فقد كنت للمصطفى خير عم

وقوله عليه السلام في مرثية ثانية:

أرقت لطير آخر الليل غردا	يذكرني شجوا عظيما مجددا
أبا طالب ماوى الصعاليك ذا الندى	وذا الحلم لا خلفاً ولم يك فعددا
فأمست قريش يفرحون لفقده	ولست أرى حياً لشيء مخلدا
أرادت أمورا زينتها حلومهم	ستوردهم يوماً من الغي موردا
يرجون تكذيب النبي وقتله	وأن يفتروا بهتاً عليه ومجحدا
كذبتم وبيت الله حتى نديكم	صدور العوالي والصفيح المهندا
فإمّا تبيدونا وإمّا نبيدكم	وإمّا تروا سلم العشيّة أرشدا ^٣

فهذا هو أمير المؤمنين عليه السلام في الشعر الأول يخاطب أباه أبا طالب ويمدحه مدحاً منقطع النظير،

١. انظر: أنوار العقول من أشعار وصي الرسول: ٣٦٣.

٢. الصعاليك: الفقراء.

٣. انظر: أنوار العقول من أشعار وصي الرسول: ١٩٤.

ويدعو له أن يصلي عليه الله سبحانه وتعالى وأن يلقية الرضوان، وذلك لا يكون من الإمام أمير المؤمنين المعصوم إلا لأنّ أبا طالب مَوْحَدٌ مُؤْمِنٌ مدافع عن حياض النبي والنبوة. وها هو ﷺ يارق لوفاة أبيه ويتذكره ويذكره بأحسن الذكر، ثمّ يبين شماتة قريش وفرحها بموته لأنهم بذلك يرجون تمكّنهم من تكذيب النبي وإبطال دعوته وقتله، وفي ذلك أدلّ دليل على أنّ أبا طالب هو الذي كان حاميا وحافظا للنبي ودعوته وأنه أحد أركان الدين وعمد المؤمنين.

وقد نظر أمير المؤمنين ﷺ في قوله:

كذبتهم وبيت الله حتى نذيقكم
فإمّا تبيدونا وإمّا نبيدكم

إلى قول أبي طالب يخاطب قريشا:

كذبتهم وبيت الله نُبزى محمداً
ونسلمه حتى نُصرع حوله

وهنا يتّضح التواصل بين الأب والابن، وتتجلّى مسيرة دفاع الأب عن النبي الموصولة بدفاع الابن عنه، وما بغضَ علياً لقريش هو نفس الأمر الذي بغضَ أبا طالب لهم. وفي نص ثالث رثى أمير المؤمنين ﷺ أبا طالب و خديجة معا، فقال:

أعينيّ جودا بارك الله فيكما
على سيّد البطحاء وابن رئيسها

لقد نصرا في الله دين محمّد

ومن الشعراء الخالدين الذين مدحوا أبا طالب ورثوه، الشيخ محمّد علي الأوردبادي النجفي.

الشيخ محمّد علي الأوردبادي

علم من الأعلام، وفاضل في الطليعة من الفضلاء، وشاعر في الصدر من شعراء عصره، جمع بين الفقه و الأصول والتفسير والحديث والتاريخ والأدب، وحلّق في كلّ مجال من مجالات المعرفة والثقافة، وكان له كبير الأثر في وقته وإلى اليوم.

قال الشيخ عبّاس القميّ: العالم الفاضل، الأديب البارع، الشاعر المتبحر الخبير، الميرزا محمّد علي الأوردبادي النجفي دام علاه، رأيت بخطّه أنّه ولد في ٢١ رجب سنة ١٣١٢ هـ، وأخذ العلم عن

١. أي من النساء.

٢. انظر: أنوار العقول من أشعار وصي الرسول: ٣٣٨. والإل: العهد.

والده، ثمَّ عن أساتذة العلم ... له تأليف ورسائل ومقالات كثيرة وأشعار جيِّدة ... والأوردبادي: نسبه إلى أوردباد بلدة تقع في الحدود بين اذربيجان وقوقاس قرب نهر أرس^١. وقال السيّد الأمين: الشيخ محمدعلي بن محمدقاسم بن محمدتقي بن محمدقاسم الأوردبادي التبريزي النجفي، ولد في تبريز سنة ١٣١٠ هـ^٢.

في الطليعة: قدم النجف بعد خمس سنوات من ولادته، وهو اليوم بها حيّ فاضل. اشتمل على فضل جمّ، وعلم غزير، وشارك في فنون مختلفة، إلى تقيّ طارفٍ وتليد، وحسب موروث وجديد...^٣ وقال الخاقاني: هو الشيخ محمدعلي ابن الشيخ أبي القاسم بن محمدتقي بن محمدقاسم الغروي الأوردبادي، عالم جليل، وأديب معروف، وشاعر مقبول ... وقد أجازه فريق من أعلام المجتهدين إجازة الاجتهاد، أمثال الإمام النائيني، والشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي، والسيّد الميرزا علي الشيرازي، والسيّد حسن صدرالدين الكاظمي، والسيّد عبدالحسين شرف الدين، والشيخ محمدرضا الإصبهاني، والشيخ محمدباقر القائيني البيرجندي، وقد أجازه في رواية الحديث أكثر من ستين عالماً...

والمترجم له شخصيته علمية أدبية فذة، طلعت في عالمها طلوع النجم المتوقد ... له نظم كثير ولكنّه لم يتعدّ حدود العقيدة...^٤

توفي رحمه الله سنة ١٣٨٠ هـ. وله ديوان شعر سيطلع ضمن موسوعته في العتبة العباسية المقدّسة.

شعره في أبي طالب عليه السلام

لقد احتلّ أبو طالب مساحة واسعة من شعر الأوردبادي، فعاش معه منذ صباه، فراح يقول فيه الشعر في شبابه:

قال الأوردبادي: وقلت مادحا شيخ الأمة وأبا الأئمة أبا طالب عليه السلام وهو من قديم شعري:

[من الوافر]

بمجدك من زعيمٍ علماً ومجدٍ عدلتُ إليك عن سلمى ودعدٍ
وفي لطل الأباطح منك سرٌّ وقاني عن كتيب ديار هندٍ

١. الكنى والألقاب ٢: ٢٠-٢١.

٢. كذا، والصواب أن اسم أبيه الميرزا أبو القاسم.

٣. الصواب أن ولادته كانت سنة ١٣١٢ هـ.

٤. أعيان الشيعة ٩: ٤٣٨.

٥. شعراء الغري ١٠: ٩٥-٩٧.

وأنشقتني نسيم علاك عَرفاً

فأنساني شذا نفحاتٍ وردٍ

يقول فيها:

إمام في الذُّوبة من نزارٍ

وحسبُ الفخرِ من رَسْمٍ وَحدٍ

فيوم الحرب تصطمم الأعداي

وتحيي الوفد في الجلى بِرَفْدٍ

كنجمٍ يَهتدى بهداه طوراً

ويَهوي تارة رَجْماً لِرَدِّ

تشميم بوجهه أنوارَ قَدْسٍ

وتلمعُ وجنتاه كَبَدِرٍ سَعْدٍ

به أم القرى ترتاح بِشراً

بأكرمِ والدٍ لَأَعزَّ وُلْدٍ^١

وفي هذه القصيدة تُلحظُ الشاعرية المتفتحة المعجبة بشخصية عظيمة فذة، وليس فيها شيء من الشبهات ولا ردّها، وما فيها إلا الإجلال والإكبار والإطراء، لكن الواضح فيها العناية بأدب الخطاب والكلام، والإلماح إلى المفاهيم العالية السامية، فهو يستعمل كلمة «إمام» في حقّ أبي طالب؛ إمّا استعمالاً لغويّاً، وإمّا أن يكون ألمح إلى أنّه من أوصياء الفترة. ثمّ راح يشبّهه بالنجم الذي يَهتدى به في الظلمات؛ كما ورد هذا التشبيه لولده من الأئمة المعصومين عليهم السلام في قول رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: مثلك ومثل الأئمة من ولدك مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، ومثلكم كمثّل النجوم كلّما غاب نجم طلع نجم آخر إلى يوم القيامة^٢، وفي قول أمير المؤمنين عليه السلام: ألا إنّ مثل آل محمّد كمثّل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم^٣.

ويؤيد هذا الإلماح والإشعار في شعره قوله: به أم القرى ... إلخ، حيث جعل مكّة المكرمة ترتاح بشراً بأبي طالب، ثمّ أوضح ذلك بقوله: بأكرمِ والدٍ لَأَعزَّ وُلْدٍ، فالشاعر هنا يشير إلى أنّهم نور واحد، وأنّ أبا طالب مصدر تلك الأنوار الإلهية للمعصومين، وذلك أخذاً من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله جلّ جلاله قبل أن يُخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلمّا خلق الله آدم سلك ذلك النور في صلبه، فلم يزل الله عزّ وجلّ ينقلبه من صلب إلى صلب حتّى أفرّه في صلب عبد المطلب، ثمّ أخرجه من صلب عبد المطلب فقسّمه قسمين، فصير قسماً في صلب عبدالله، وقسماً في صلب أبي طالب، فعلي منّي وأنا من علي ...^٤

١. دفتر الشعر، مخطوط: ٢٩.

٢. كمال الدين وتمام النعمة: ٢٤١.

٣. نهج البلاغة: ١/١٩٤، ج ١٠٠.

٤. النخلة: ٦٤٠، ج ١٦.

وبلاحظ هنا استعماله «الأباطح» جمعا، وسيأتي تكرارها، كما سيأتي استعمال «الأبطحين»، ولم يستعمل في شعره «الأبطح»، وذلك لما في التثنية والجمع من مبالغة، لأن كل جزء من التراب بمنزلة الأبطح، وهو مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى. والأبطحان يكونان في جانبي مكة، فيصح تثنيتهما على الحقيقة أو على المبالغة أيضا، فإن العرب إذا أرادت المبالغة والتكثير ثنّت وجمعت. ومثل ذلك قيل أو يقال في قوله تعالى: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)¹ و (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)² و (بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)³.

وقال الأوردبادي أيضا في مدح أبي طالب بيتين هما:
[من الوافر]

إلى شيخ الأباطح كلُّ مدحي ومن للمدح مثل أبي الأباطح؟
دعاه لحقه ففضى ولبي ونادى من عداه وقد أبقى: طح

وهنا عبر عن أبي طالب عليه السلام بـ «شيخ الأباطح» جمعا، ثم عبر عنه بـ «أبي الأباطح» جمعا أيضا، وهذا كله لما في نفسه من إجلال وإعظام لشخصية أبي طالب. والتعبير بـ «أبي الأباطح» توسع، إذ العرب توسعت في الكنى ما لم تتوسع في غيرها، فقالوا لآدم: أبو البشر، ولأمير المؤمنين عليه السلام: أبو تراب، فكان أبا طالب هو الأب والوالد للأباطح وأنها لم تكن لولاه. وفي هذين البيتين جناس مركب بين «الأباطح» و «أبي طح»، و «طح» فعل أمر من طاح يطيح بمعنى سقط ووقع.

والضمير في «دعاه» يعود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يجر له ذكر سابقا، وذلك لمعرفيته من خلال سياق الكلام، وهو مثل قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)⁴، فالضمير في (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) يعود للقرآن وإن لم يجر له ذكر. فالأوردبادي هنا يصرح بأن النبي دعا عمه أبا طالب لحقه، ففضى حقه ولبي دعوته للإسلام،

۱. الشعراء: ۲۸، المزمّل: ۹.

۲. الرحمن: ۱۷.

۳. المعارج: ۴۰.

۴. الرياض الزاهرة: ۱۲۷ من المخطوطة.

۵. انظر: المرضع، لابن الأثير: ۴۴-۴۵.

۶. القدر: ۱.

ونادى من سواه - كأبي سفيان وأبي جهل والعاص وأضرابهم، حيث أبوا الدعوة وأرادوا إهلاك النبي - نادى: طح، فشتان بين من لبي وأبي، وبين من قضى حق النبي - وهو أبو طالب - ومن أراد إهلاك النبي ﷺ، ففاعل «نادى» على هذا الوجه هو «من عداه».

ويحتمل أن يكون فاعل «نادى» رسول الله ﷺ، و «من عداه» مفعوله، ويكون المعنى: أن النبي نادى من عدا أباً طالب - إذ أبى ذلك الغير الدعوة - : طح. وعلى كلا الوجهين، يُبرز الشاعر هنا إيمان أبي طالب، وكُفر من عداه من القرشيين، فهم أحق وأولى بالكفر والعذاب الأليم، فما أروع هذا الإبداع في بيتين من الشعر. وله أيضاً قصيدة حاثية عامرة، قال: قلت مادحا شيخ الأباطح، منتجع الأمة، وأبا الأئمة، أبا طالب ﷺ:

[من الوافر]

وفي أنواره زهتِ البطحُ	بشيخ الأبطحين فشا الصلاحُ
يلين به من الشرك الجِماحُ	براه الله للتوحيد عَضْباً
حَمَى الإسلام نهباً يُستباحُ	وعمُّ المصطفى لولاه أضحى
له الدين الأصيلُ ولأبراحُ	ويسترسل في مدحه إلى أن يعرج على ردِّ الشبهات، فَيبرزُ شاعرا عالما، ومادحا محققا، حيث يقول:
وما عن حيدرٍ فضلُ يزاحُ	وصفو القول أن أبا عليٍّ
لكلِّ مُحاولٍ قَصداً تُباحُ	ولكن لابنه نصبوا عدا
وإن يك حوله كثرُ النباحُ	فنالوا من أبيه وما المع
فهل يخفى لذي العين الصباحُ	وضوء البدر أبلج لا يُوارى
بمُرَّتَبِكِ الهوى لهمُ التباحُ	«وهبني قلت إنَّ الصبح ليل»
تصافقه الإمامة والنجاحُ	فدع بمتاهة التضليل قوماً
	فذا شيخ الأباطح في هداهُ

وهنا يلاحظ استعماله «الأبطحين» «البطاح» «الأباطح»، وفيها ما مرَّ التنبيه عليه من التفخيم والتعظيم.

ومطلع هذه القصيدة كمطالع فحول الشعراء، يدلّ بنفسه على محتوى القصيدة وقوّتها، وهو الأسلوب الحديث في مطالع القصائد الرائعة، فهو يحمل قوّة الشخصية «شيخ الأبطحين»، ووصفه بالصلاح الديني الذي هو خلاف الضلال والكفر إشارة إلى إيمانه الشخصي الذي يا: ينتشر منه الصلاح، كما يحمل معنى الأنوار الإلهية التي تحملها الشخصية الممدوحة والتي تزهو منها جميع الباطح والأراضي.

فهذا المطلع كمطلع عينية الجواهري في الإمام الحسين عليه السلام:

فداء لمثواك من مضجع تنور بالأبلج الأروع^١

وكمطلع نونية الشيخ أحمد الواثلي في أمير المؤمنين عليه السلام:

غالي يسار واستخفّ يمينُ بك يا لكنّك لا يكادُ يبين^٢

وغيرهما من مطالع فحول الشعراء.

ويكمل الشاعر مسيرة مطلعته فيتناول مسألة أن الله عزّ وجلّ خلق أبا طالب ليكون سيفاً للتوحيد يدافع عنه ويكبح جماح الشرك، فهو عمّ المصطفى الذي لولاه لاستبيح حمى الإسلام، فهو المدافع عن حمى الإسلام والحارس له، فيكون فوق الميول والشبهات.

وبعد إفاضة الشاعر بالمدح ينتقل إلى الأبيات التي ذكرناها، والتي تحمل معنى التحقيق، بل بعض العبارات المستخدمة في بيان خلاصة البحوث، وذلك عند قوله «وصِفُو القول»، فهي عبارة يتداولها الكتّاب عند بيان النتيجة بعد النقض والإبرام.

وفي قوله: «إنّ أبا علي»، والعدول عن قوله: «أبا طالب» أو غيره من كناه الشريفة، إشارة وتمهيد لما سيقوله من بعد من بيان سبب التّهم التي ألصقوها بأبي طالب وهو منها براء، فإنّ أبا أمير المؤمنين علي له الدين الأصيل الذي لا يبراح عنه، ولكنّ النواصب نصبوا العدا لآبائه أمير المؤمنين عليه السلام، ولما لم يستطيعوا أن يجدوا فيه مهمزاً ولا مغمزاً - لأنّه مجمع الفضائل ولا يمكن إبعاد أي فضيلة عنه - راحوا ينالون من أبيه ويكيلون له التّهم جزافاً، ولكنّهم لم يوفقوا ولم يستطيعوا ذلك لأنّ المعالي تستعصي عن أن تُباح لمن يحاول النيل منها.

ثمّ انساب الشاعر في قوله:

وضوء البدر أبلج لا يُورى وإن يك حوله كثر النَّباح

١. ديوان الجواهري ٢: ٢٦٦.

٢. ديوان الواثلي: ٨٢.

ليستفيد من معنى المثل المولّد: قد ينبحُ الكلبُ القمرَ، فليلقم النابحُ الحجرَ، وهو مأخوذ من المثل: لا يضرّ السحابُ نباحَ الكلاب، المأخوذ من قول الفرزدق:

وقد ينبحُ الكلبُ السحابَ ودونه مهامه تُعشي نظرة المتأمل^٢

فإنّ نباح الكلب لا يضير ضياء القمر ولا يغطيه ولا يستطيع حجب نوره، فكذلك أعداء أبي طالب لا يستطيعون بمفترياتهم وضجيجهم حجب الوجه القمريّ الناصع الوضاء لأبي طالب المؤمن المجاهد.

ثم يضمّن في البيت اللاحق صدر بيت للمتنبيّ قاله، وهو قوله:

وهبني قلت هذا الصبح ليل^٣ أيعمى العالمون عن الضياء

فضمّنه قائلاً:

«وهبني قلت إنّ الصبح ليل» فهل يخفى لذي العين الصباح

وهذا يدلّ على تبحره في الشعر العربي، وسلامة ذوقه، وحسن تضمينه لشطر من شعر أكبر شعراء لغة العرب وهو المتنبيّ.

ثمّ يختم قصيدته بالدعوة إلى ترك الضائعين في متاهة التضليل الذي يلتاحون في الهوى والضلال، وترك كلامهم، وذلك لأنّ «شيخ الأباطح» واضح الهدى، حيث تصافقه الإمامة والنجاح، أي أنّه يتّصف بالإمامة- كما أشرنا من قبل إلى معنيها- وبالنجاح، أو لعلّ الشاعر أراد أنّ هدى «شيخ الأباطح» صافقتته وصادقته عليه الإمامة بمعنى كلمات الإمامة أي الأئمة، كما يصدّقه ويصافقه النجاح والإيمان الذي هو عليه.

ومن شدّة تعلق الأوردبادي بشيخ الأبطحين، تراه لا ينسى ذكره عند مدح أمير المؤمنين عليه السلام، فلا يفوته أن يعرّج على ذكره، وأنّ من المفاخر أن يكون لأمير المؤمنين أخٌ مثل محمد عليه السلام، وأب مثل شيخ الأبطحين.

فمن قصيدة له عصماء قال: إنّه قالها في مدح الآية الكبرى والنبيا العظيم صاحب المحجّة اللائحة والصراف المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام، يقول في مطلعها:

[من الكامل]

١. تبيمة الدهر ٢: ٢٨٢.

٢. انظر: المستقصى في أمثال العرب ٢: ٢٧٢، المثل ٩٤٣.

٣. ديوان المتنبي: ٩٢.

مَدْحُ تَفَانِي دُونَهَا الْأَمْدُ وَمُنَاقِبُ لَمْ يُحْصِهَا عَدْدُ

يقول فيها:

هَذَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَذِي غُرْرِ الْقَوَافِي نَحْوَهُ تَفَدُّ

فَأَبُوهُ شَيْخَ الْأَبْطَحِينَ وَهَلْ مِثْلَ النَّبِيِّ لَهُ أَخٌ أَحَدٌ؟^١

والبادي للعيان في قصائد الأوردبادي في أبي طالب عليه السلام أنه كرّس البحر الوافر ليفرغ أحاسيسه التي تجيش بصدرة في قوالب شعرية رنانة، والبحر الوافر يمتاز بكثرة الحركات، وهو بحر مرن يمكنه أن يؤدي أشد المعاني وأحمزها، لذلك كثر استعماله مبدعاً في الفخر والرثاء، وبما أن الأوردبادي كان يفتخر بأبي طالب ويعدّد مآثره ومفاخره، لذلك أكثر من استعمال هذا البحر في مدح أبي طالب عليه السلام.

بقي عليّ أن أشير في ختام هذه المقالة إلى ما حدثني به سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد مهدي الشيرازي حفيد الميرزا الشيرازي، وسبط العلّامة الأوردبادي، حيث قال لي: إن جدّي الأوردبادي لما رأى مظلومية أبي طالب وقلة ما قيل فيه من الشعر العربي قياساً إلى ضخامة شخصيته، شمر عن ساعد الجدّ، وكرّس همّة وهمته لقول الشعر في أبي طالب، واستنفر مشايخ الأدب والقريض في زمانه ليقولوا القصائد والروائع فيه، فوفّق لذلك بمقدار ما ساعفته به الظروف. وأنا أدعو في ختام مقالتي هذه كلّ الفضلاء والأدباء والشعراء إلى استجلاء وإجلاء معالم هذا الطود الشامخ والبحر الزاخر، كما أدعو الحوزات العلمية والجامعات والكليات إلى جمع شتات ما قيل فيه من الشعر والتوافر على دراستها في رسائل الماجستير والدكتوراه، لنقدّم للندى أطيب زاد ونريهم أرفع عماد من أعمدة الإسلام.

هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

١. ملحق الرياض الزاهرة: ١٤٥ من المخطوطة.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

نهج البلاغة، تحقيق وشرح محمد عبده، قم، دار الذخائر، ١٤١٢ هـ / ١٣٧٠ ش.

١. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.

٢. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م.

٣. وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٨٢ هـ.

٤. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ المالكي، تحقيق سامي الغريزي، قم، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

٥. أنوار العقول من أشعار وصي الرسول، قطب الدين البيهقي الكيدري، دراسة وتحقيق كامل سلمان الجبوري، بيروت، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.

٦. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، بيروت، دار التعارف.

٧. شعراء العري، علي الخاقاني، قم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ.

٨. دفتر الشعر، محمد علي الأوردوبادي، مخطوط.

٩. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، تحقيق وتعليق على أكبر الغفاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٥ هـ / ١٣٦٣ ش.

١٠. الخصال، الشيخ الصدوق، تحقيق وتعليق على أكبر الغفاري، قم، منشورات جماعة المدرسين، ١٤٠٣ هـ / ١٣٦٢ ش.

١١. الرياض الزاهرة، محمد علي الأوردوبادي، مخطوط.

١٢. المرصع في الآباء والأئمّهات والبنين والبنات والأذواء والذوات، ابن الأثير، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة إرشاد، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

١٣. ديوان الجواهرى، بيروت، دار العودة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢ م.

١٤. ديوان شعر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، شرح وتدقيق سمير شيخ الأرض، بيروت، مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.

١٥. تيممة الدهر، أبو منصور الثعالبي، شرح وتحقيق مفيد محمد قمحية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

١٦. المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ م.

١٧. ديوان أبي الطيب المتنبى، تصحيح عبد الوهاب عزّام، بيروت، دار الزهراء، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

١٨. ملحق الرياض الزاهرة، محمد علي الأوردوبادي، مخطوط.

١٩. الغدير، عبد الحسين الأميني، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

٢٠. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، طهران، مكتبة الصدر.

٢١. المغنى، عبد الله بن قدامة، بيروت، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.